المعلم ودوره الكبير في نهوض الأمة وتقدمها

الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة

مجمع اللغة العربية الأردني

الثلاثاء ٨ تشرين الثاني ٢٠١٦م

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي خاطبه ربه، في أول عهد الدعوة، وأول مدارج النبوة والرسالة الخالدة، بقوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ العلق: ١ – ٥.

لننظر – أيها السادة– في هذه الآيات الكريمة، ولنتدبّر ما فيها من معان ودلالات، أبعدَ، أو أكثر عمقاً مما يتبادر إلى الذهن من القراءة الأولى.

وردت مادة (قرأ) وما يشتق منها في القرآن الكريم في (٨٧) آية، منها (٧٠) سبعون آية ذكرت كلمة (القرآن)، والباقي في مشتقات لهذه الكلمة، مثل: قرأتَ، وقرأناه، وقرأه، ولتقرأه، ونقرؤه، وأَقرأَ، واقرءوا، وقُرِئَ، وسنقرئك... وغيرِها.

أما مادة (علم) وما يشتق منها، فقد وردت في القرآن الكريم في حوالي (٥٠٠) موضع، شملت مشتقاتِها كلَّها تقريبًا مثل: عَلِمَ، وأَعْلَمُ، وتَعْلَمْ، ولَتَعْلَمُنَّ، وتعلمون، ويعلم، ويعلمون، وعَلّمتُك، وعلّمتني، وغيرها. عددتُ هذه المشتقاتِ لتعلموا أنَّ عملية التعليم تشمل كل شيء، والفاعل فيها هو كل إنسان، فليس (المعلم) فردًا خاصًا في المجتمع، أو شخصًا متخصصًا بالتعليم، تعاقدت معه إحدى المؤسسات الرسمية أو الخاصة، بل هو وصفٌ عامٌّ، يدل على أنّ كل فردٍ في المجتمع يكون معلمًا فيه، في كل مجال من مجالات عمله أو اهتمامه.

تدبّروا أيها السادة في الآياتِ الآتية:

﴿ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ البقرة: ٦٠.

أي قد عرف كل أناس مكان الشرب المخصص لهم.

- فالعلم هنا يعني اليقين القائم على معرفة سابقة.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ النور: ٤١

- وهذا العلم الفطري الذي يوجد مع المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤ ﴾ التكوير: ١٣ - ١٤

- وهذا هو العلم الذي ينكشف لك في موقف محدد.

عَرَفَ العربُ العلمَ بكلّ ما يتعلق به من بيئة تعليمية، وعلوم، ومعلمين، ومتعلمين، منذ القرون الأولى، بل عرف العرب مبدأ الشك التجريبي في طريق المعرفة العلمية، قبل أن يوجد بقرون.

"سأل شُعبةُ أيوبَ السجستاني عن حديث، فقال: أشك فيه. فقال: شَكُّكَ أحبّ إليَّ من يقيني"(١).

---

(١) العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج٢، ص٨٣.

"وسأل إبراهيم النّخعي عامرًا الشعبي عـــن مســـألة، فقـــال: لا أدري. فقـــال: هذا – والله– العالم، سئل عمّا لا يدري، فقال: لا أدري"(١).

"وقال مالك بن أنس: إذا ترك العالم لا أدري، أصيبت مقاتله"(٢).

"وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ مُعَلِّمِكَ حتى تجلس عند غيره"(٣).

وفي كتب الأدب، ومصادر التراث العربي الكبيرة، كالبيان والتبيين، والعقد الفريد، وعيون الأخبار، وغيرها من أخبار العلم والعلماء والمتعلمين والمعلمين، ما يدل **على أن العلم أساس في بناء هذه الأمة، وأن العلماء هم الذين يقودون أممهم إلى الخير والنصر والعلم والحضارة.**

"دخل رجل على عبدالملك بن مروان، وكان لا يَسْأَلُهُ عن شيء إلا وجد عنده عِلْمًا، فقال له: أنّى لك هذا؟ فقال: لم أمنع قط يا أمير المؤمنين علمًا أفيده، ولم أحتقر علمًا أستفيده، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته"(٤).

"وروى زياد عن مالك، قال: كنْ عالمًا أو متعلمًا، أو مستمعًا، وإياك والرابعة، فإنها مهلكة، ولا تكونُ عالمًا حتى تكونَ عاملاً، ولا تكونُ مؤمنًا حتى تكونَ تقيًا"(٥).

وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ينتزعه من العباد، ولكنْ يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا، اتخذ الناسُ رؤوسًا جُهّالاً، فسُئلوا فأفْتَوا بغير عِلْم، فضلُّوا وأَضَلُّوا"(٦).

---

(١) العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ج٢، ص٨٣.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر السابق، ص٨٩.

(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٦) صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، (ط١) دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣٨.

والله عز وجلّ يقول في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر: ٢٨

ويقول سبحانه:﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٣

وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "إن قليلَ العمل ينفعُ مع العلم بالله، وإن كثيرَ العمل لا ينفعُ مع الجهل بالله"(١). وقال عليه الصلاة والسلام: "يَحْمِلُ هذا العِلْمَ مِنْ كل خَلَفٍ عُدُولُهُ، ينفون عنه تحريفَ الغالِين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين"(٢).

"وقال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حُكّام على الدنيا، والعلماء حُكّام على الملوك"(٣).

"وقال أبو قِلابة: مَثَلُ العلماء في الأرض مَثَلُ النجوم في السماء، من تركها ضلّ، ومن غابت عنه تحيّر"(٤).

هذه أمثلة معدودة من الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة عن فضل العلم، والتعلم، والمتعلم، والمعلم في حياة الأمة العربية الإسلامية. وإنّ المصادر الكبرى لتحتفل بالحديث عن العلماء وعن العلم، وتعقد لهم أبوابًا وفصولاً في

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ج١، ص١٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، قدم له وضبطه: علي بن حسن بن علي الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، (١٩٩٦م)، ج١، ص٢١٩.

(٣) العقد الفريد، ج٢، ص٨٣.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

بيان فضلهم وعرض أفكارهم وبيان منزلتهم. وأعرض فيما يلي مثالاً واحدًا فقط، يبين اهتمام الخلفاء بالعلماء، وحرصهم على مجالستهم، وعلى الإفادة منهم في تعليم أولادهم.

قال هارون الرشيد لخلف الأحمر، مُؤدِّبِ ولده: "يا أحمرُ، إنّ أميرَ المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتَه لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين؛ أقرِئْه القرآنَ، وعرِّفه الأخبارَ، وروِّه الأشعارَ، وعلِّمه السننَ، وبَصِّرْهُ بمواقع الكلام وبدئه، وامنعْه من الضَّحِك إلا في أوقاته، وخُذْه بتعظيم مشايخِ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القادة إذا حضروا مجلسه.

ولا تمرَّنَّ بكَ ساعةٌ إلا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيدُه إياها من غير أن تُحزِنَه فتميتَ ذهنه، ولا تمعنْ في مسامحته فيستحليَ الفراغَ ويألَفَه. وقوّمْهُ ما استطعتَ بالقرب والملاينة، فإن أباهما، فعليك بالشدة والغلظة"(١).

في هذا النص الكبير، رَسَمَ الرشيد للمؤدب (المعلم) الأهدافَ والمحتوى ووسائلَ التدريس، ووسائل التقويم، كما نقول اليوم في الأدب التربوي. وما أحرى هذا النص أن يكون في مناهج التربية والتعليم في مواقع متعددة، ومنصات بارزة.

إنَّ مثلَ هذه النصوص، وغيرها كثير في كتب الأدب واللغة ومصادرها الكبرى؛ كالعقد الفريد والأغاني، وعيون الأخبار، وديوان الأدب ونهاية الأرب، والبيان والتبيين، وغيرها. وهي جميعاً تحتفل بالعلم والعلماء، وتَضَعُ المعلمَ في مواضع متقدمة من التبجيل والاحترام والتقدير، وتعرفُ فضله في صناعة الأمة المتقدمة، والحضارة الرائدة.

---

(١) العقد الفريد، ج٢، ص٨٩.

والناس يطلقون الآن وصف (معلم) على كل متقن في صناعته ومهنته، فيقولون: هذا (معلم) في صناعة النسيج، وهذا (معلم) في الخياطة، وهذا (معلم) في البناء، وهذا (معلم) في الحلويات، وهذا (معلم) في السياقة، أو في الحلاقة، وفي أي مهنة أخرى.

وإذا عدنا إلى تلك الآيات الكريمة، التي هي أول ما نزل من القرآن الكريم، نجدها تأمر بالقراءة والتعليم. وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾

- فما دلالة الفعل (اقرأ)، وفعل القراءة في هذه الآيات الكريمة؟
- وما دلالة (وربك الأكرم) بالرفع، وليس بالجر كما يتبادر إلى الذهن؛ لأن الآية لو كانت مجرورة؛ أي (اقرأ وربِّك الأكرمِ)، لكانت تعني القسم بالله رب العالمين، أي تدل على جلالة القراءة وعلوّ شأنها وأثرها في الناس. ولكن الآية الكريمة فاجأتنا –على غير ما نتوقع– فقالت: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾، فما البيان الذي في هذا التركيب العجيب؟
- وفي قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ دلالاتٌ كبيرة على العلاقات الوثيقة بين العِلْم وتدوين العلم وحفظه (بالتدوين والكتابة)؛ ليظل عِلْمًا ينمو ويزداد ويتطور على مرّ العصور، ولتفيد منه الأجيال اللاحقة كلها.
- وفي قوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ إثباتٌ للحقيقة الخالدة، أنَّ العلمَ موجود في ما خلق الله عز وجل في كونه العظيم، وفيما قدّره الله عز وجل من أسباب ومسببات، تربط أجزاء هذا الكون بعضَها ببعض، وتقوم على مبدأ السببية الذي هو أساسُ التفسير الكوني

لكل ما خَلَقَ الله عزّ وجلّ في السماوات والأرض، ومنه الإنسان وما يتعلق به من أسباب الحياة والموت، والعلم والمعرفة، وتبدل الأحوال وتنوع المعارف على مرّ الأزمان. وهو أيضًا دعوةٌ واضحةٌ إلى الاستمرار في النّظرِ والبحثِ حتى يعلمَ الإنسانُ، في كل عصر، وفي كل جيل، ما لم يعلم من قبل. وهذه إشارةٌ قرآنيةٌ إلى أنَّ العلمَ لا يزال ينمو ويظهر ويتطور ما دام الإنسان باحثًا في أسرار هذا الكون، وما يجري فيه وما ينكشف له، من أثر التفاعل التام، بين الإنسان والبيئة التي يحيا فيها، من نظريات علمية وحقائق كونية، تنتظم حياة الإنسان وصلته الدائمة بينه وبين ما خلق الله عز وجل في السماوات والأرض في هذا الكون الفسيح.

إنّ هذه الفكرة تقدم لنا عدة حقائق:

- أنّ هذا الكون قائم على فكرة العلم الذي ينتظم مكوناته كلها والنظام الذي بني عليه، والصنع المتقن الذي ربط بين المخلوقات كلها في إطار من الانتظام العلمي المحكم بين الإنسان وما سخّر الله عز وجل له، من وسائل ومصانع يحيا بها وتحيا به في مسيرته في هذا الكون.
- أن هذا النظام لا يزال العلماء والحكماء والفلاسفة وأهل الفكر يدرسونه، ويحللونه، ويتعرفون إلى أسرار الخلق فيه، ويبثون بما يكتشفونه نظرياتٍ علميةً مستمرةً، لا تتوقف، تنبثق من الكون، ومن التفاعل الإنساني معه.

- أن هذا النظام مُسَخّر من الله عز وجل للإنسان يتعامل معه وفق حاجته، ووفق ما يتوصل إليه من أسرار الخلق الإلهي فيه. وأن عملية التفاعل هذه بين الإنسان والكون الذي خلقه الله عز وجل وسخره له، تنتج على مرّ الدهور والعصور والأزمان من النظريات العلمية، وتكشف من الأسرار الكونية ما يملأ الدنيا من موضوعات تحتاج إلى البحث والتحليل والتفسير، وهنا يأتي دور العلماء في كشف ما تقوم عليه السماوات والأرض من حقائق كونية، ونظريات علمية.

إن الآيات القرآنية الكريمة تنطق بوضوح بهذه المعاني، وتدعو بإصرار إلى الفهم والعمل بمقتضى هذا الفهم لمسيرة الإنسان في الأرض. تدبّر الآيات الكريمة التالية:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾الرعد: ٢ — ٤.

ذكرت الآيات الكريمة حقائق ونظريات تجري أمام أعيننا، مشاهد من نظام الكون، شواهد على عظمة الخالق، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إذن هم يتفكرون، ومن ثم يعقلون، ومن ثم يؤمنون.

وعمليات التفكير والتدبر والتعلم، لا بد لها من رجال يهدون الناس إلى سبل العلم والتفكير والتدبر، هؤلاء الرجال، هم المعلمون.

إن التعليم –أيها السادة– هو أول مهمة قام بها الإنسان على ظهر الأرض، بل إنها هي المهمة التي من أجلها وجد الإنسان في هذا الكون. اقرأوا إن شئتم قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ البقرة: ٣٠ – ٣٣ .

- إنّ هذه الآيات تدل على أن العلم هو عنوان الحياة على سطح الأرض.
- وأنّ التعليم هو النشاط الأول الذي قام به الإنسان على سطح الأرض.
- وأن آدم عليه السلام، أول من قام بنشاط تعليمي؛ فقد أمره الله عز وجل أن ينبئ الملائكة بأسماء بني الدنيا: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾.

* * *

أما في الفكر التربوي الحديث عند الحديث عن العملية التعليمية بشكل عام، وعن دعائمها وأسسها العامة والخاصة، فإنهم يرسمون المثلث التربوي، أو المثلث التعليمي، ويجعلون على كل رأس من رؤوسه عنواناً، بكلمة واحدة، وهذه الكلمات هي: المعلم/ الطالب/ المنهاج. وكلمة المعلم توضع على رأس

المثلث الأعلى في الرسم التالي، وتوضع كلمة الطالب على الطرف السفلي اليمين، وتوضع كلمة المنهاج على الطرف السفلي الأيسر، هكذا:

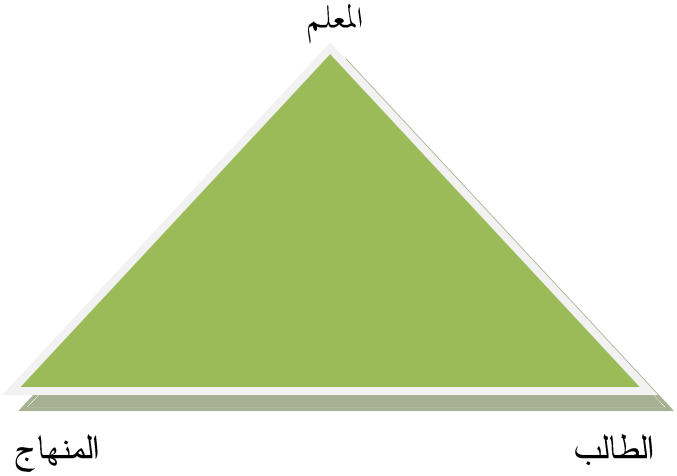

المثلث التعليمي

وهذا ترتيب له دلالة، ذلك أن المعلم هو الأصل في العملية التعليمية؛ فإن وجد المعلم الكفي كان التعليم الوافي الشافي، وإلا فإنه تعليم عشوائي، لا يقوم على أسس منظمة، ومناهج مرسومة محددة وفق أهداف مقصودة، يُعدّ لها الإعداد الكافي، العلمي، المدروس.

المعلم –أيها السادة–، هو سراج العلم، هو سراج النور، هو السراج المنير في أمته، وفي وطنه، هو الذي يبني المجتمع ويزوّده بكل ما يلزم من وسائل التعلم ومناهج التعليم، وإعداد المعلمين الذين يقومون بكل ما يلزم العملية التعليمية في كل مستوياتها. المعلم وراء إنتاج كل العاملين في بناء الوطن، هو

الذي يَعُدُّ العلماء في مختبراتهم وتجاربهم، وهو الذي يجند الجنود في كتائبهم وخنادقهم، وهو الذي يهيئ المهندسين والمحامين والقضاة والمحاسبين، وكلَّ ذي مهنة في أنحاء الوطن. المعلم هو العامل الصامتُ، المُجِدُّ، الذي ينفق عمره في إعداد هؤلاء جميعهم.

يقول أحد الشعراء في وصف عمل المعلّم:

أَفْنَيْتُ في التَّـدْريس زَهْـرَ شَـبَابي ... وَغَرَسْتُ حُبَّ العِلْم فـي طُلاَّبـي
وكسـا الخـزُّ جسـمه فتبـاهى ... والفَضْـلُ يَعْرِفُـهُ ذَوُو الأَلْبَـابِ
سَـيُقَدِّرُ الطُّلاَّبُ جُهْـدِيَ بيـنَهُمْ ... في الفصلِ، سَلْ سَبُّورَتي وكِتـابِي
سَلْ دَفْتَرَ التّحْضـيرِ، كيـفَ يُعينُنِـي ... في الفصلِ، سَلْ سَبُّورَتي وكِتـابِي
وسَـلِ المُجَنَّـدَ إنّنـي دَرّسْـتُهُ ... وسَلِ الإمامَ الشيخَ فـي المِحـرابِ
وسَل الطَّبيبَ يَجُسُّ نَـبضَ مريضِـهِ ... أضحى طَبيبَ القلبِ والأعْصـابِ
وسَلِ المُهندسَ، كيفَ يرسُـمُ خطَّـةً ... لإقامـةِ البُنْيـانِ فـوقَ سَـحابِ
قدْ كنتُ جسـرًا للعبـورِ أنـا الـذي ... أَرشـدْتُ طُلابِـي لكـلِّ صَـوابِ

ولذلك قالوا في الأمثال: المعلم شمعةٌ تحترق لتنير الطريق أمام الأجيال.

هذا المعلم هو الذي ينشر اللغـة العربيـة، ويعلمهـا للأجيـال التاليـة. واللغة العربية هي لغة الأمة، ولـن تـنهض أمـة أو تتقـدم إلا بلغتهـا الأم. والأمة العربية هي أول أمـة يصـدق عليهـا هـذا القـول. الأمـة العربيـة وحّدَها اللسـان العربـي، الـذي بـه نـزل القـرآن الكـريم، ﴿ بِلِسَانٍعَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾، فصارت الأمـة العربيـة بهـذا اللسـان أمـة واحـدة، اصـطلحت شعوبُها المتعددة على حمل رسـالة القـرآن الكـريم، ونشـر مبـادئ الـدين القويم في كـل أنحـاء الأرض، يتحـدثون باللغـة الفصـيحة فـي حيـاتهم

الاجتماعية، وفي دواوينهم الرسميّة، وفي مكاتباتهم الدَّوليّة، وفي رسائلهم الأدبيّة، ودواوينهم الشعرية، ينتقل أبناء اللغة، وأبناء الأمة من الشرق إلى الغرب، من أقصى أطراف الهند والصين شرقًا، إلى أقصى أطراف المغرب والأندلس غربًا، لا حديث لهم إلا باللسان العربي المبين، وما أسرع ما تنتقل كتبهم وأسفارهم وأقوالهم وأشعارهم بين شتى الأقطار والأوطان، ولكنهم يلتقون على شيء واحد يوحّد بينهم، ويؤلّف بين قلوبهم، كتاب الله عز وجل الذي نزل به الروح الأمين، بلسان عربي مبين.

فما الذي حدث بعد ذلك المجد الأثيل، والنصر العزيز؟!

عرف أعداءُ الأمة العربية سرَّ قوتها، وأساسَ عزّتها، وأدركوا أنه اللسان الموحّد، واللغة القوية العزيزة الخالدة، فكادوا لها كيدًا، وبخاصةٍ في العصور الحديثة، التي انتشرت فيها الدعوات الهدامة، للوقوف في طريق اللغة العربية، التي هي أولاً وآخرًا، طريقُ المجدِ والكرامةِ والعزةِ والوحدةِ والانتصارِ.

صاروا يشيعون النظريات الفاسدة، ملفوفةً بثياب مزركشةٍ وبأهدافٍ ملونةٍ، فمن قائل بأن الحروف العربية صعبٌ تعلمها على الكبار بله الصغار، ومن العسير تعلم الحركات وضبط الإعراب، -فلا بأس إذن- أن:

- نتركَ حركات الإعراب، ونقرأ بتسكين الحروفِ كلِّها، حتى لا نتوه في ميادين الرفع والنصب والجر، ونبتعدَ عن حركات الإعراب، وأشكالِ البناء، وقوانينِ الصرف، وأحوال الممنوع من الصرف، كل ذلك يُحَلُّ بالتسكين وبه يتم الأمر، على أسهل صورة وأيسرها.

نسي هؤلاء أو تناسَوا أن الإعراب فرع المعنى، وأن المعاني تتلون وتتعدد بالحركات الإعرابية، وأن أساليب البيان تتنوع بتنوع الموقع الإعرابي، الذي يظهر تارة ويُقدّر تارة أخرى.

انظر في المثال التالي كيف نفهم اعتراضَ الخليفة عبدالملك بن مروان على قول الشاعر عتبان الشيباني الحروري –وهو يرى رأي الخوارج– وقد أُحضِرَ إليه بعد مقتل شبيب بن يزيد بن نعيم، أحد كبار الخوارج، فقال له عبدالملك: "ألستَ القائلَ يا عدوَّ اللهِ:

فإن يكُ منكم كانَ مــروانُ وابنــه وعمرو ومنكم هاشــمٌ وحبيــبُ

وكســا الخزُّ جسمـــــه فتبـــاهى ومنّا أميــرُ المــؤمنينَ شــبيبُ

فقال: لم أقل كذا يا أمير المؤمنين، وإنما قلت:

ومنّا أميرَ المؤمنينَ شبيبُ

فاستحسن قوله، وأمر بتخلية سبيله"(١).

فكان جوابه من الحسن حتى أطلق عبدالملك سراحه، إذ جعلها منصوبة على النداء، أي: يا أميرَ المؤمنين منّا شبيب، وبذلك لا يكون شبيب هو أمير المؤمنين، بل عبدالملك.

أو كيف نفهم قول الشاعر الفرزدق، وقد حضر مجلس عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي، "فقال: كيف تنشد هذا البيت:

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٢، ص٤٥٦.

وعينـــانِ قـــال الله: كونـــا فكانتـــا فَعولانِ في الألبابِ ما تَفعلُ الخمرُ

فقال الفرزدق: كذا أنشدُه. فقال ابن أبي إسحاق الحضرمي: ومـــا عليـــك لـــو قلت فعولَيْنِ؟ فقال الفرزدق: لـــو شـــئتُ أنْ أســـبحَ لســـبحتُ. ونهـــض فلـــم يعرف أحد في المجلس قوله: (لو شئت أن أسبح لســـبحت). فقـــال ابـــن أبـــي إسحاق: لو قال فعولين لأخبر أن الله خلقهمـــا وأمرهمـــا، ولكنـــه أراد: همـــا يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر"[1].

وكيف نُدركُ اللطيفة القرآنية في قول الله عز وجل: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ التوبة: ٣.

إذ يجب رفع اللام في كلمة (ورسولُهُ)، حتى لا نقع في الشرك إذا جررناها متابعة لما سبقها من كلمة (المشركين).

فمَن وراء هذه الدقائق واللطائف يبيّنها للناس، ويعلمهم معنى كل عبارة، ودلالة كل حركة، يستقيم المعنى الذي تريده الآية الكريمة، أو يقصده الشاعر، أو يحرض عليه الكاتب؟

---

(١) مجالس العلماء، عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: عبدالسلام هارون، (ط٣)، مكتبة الخانجي، (١٩٩٩م)، ص٦٦.

إنه المعلم، والمعلم وحده هو الذي يقوم بذلك، ولو قال لي أحد الناس: إن الوالد أو الأم أو أيَّ شخصٍ من الناس يمكن أن يقوم بهذا الأمر. لقلت: إنه في هذه اللحظة يكون (معلمًا)، يصحح الخطأ ويبين الصواب.

لست أريد أن أعرض لمحاولات الإساءة إلى اللغة العربية، وهي كثيرة، ولكني أريد أن أقول: إن طبقة المعلمين، هي التي تقوم بحماية اللغة في المقام الأول، وإن المعلم هو المسؤول قبل غيره عن التصدي لكل ما يسيء إلى اللغة، وإلى الأمة من وراء ذلك.

فمن باب أولى إذن، أن يكون كل (معلم) معلّمًا للغة العربية، وأن نلغي من حياتنا التعليمية والعمليّة أن هذا معلم لغة عربية، وذاك معلم رياضيات، وذاك معلم علوم.

نعم، هم كذلك في تخصصاتهم؛ معلمو علوم ورياضيات وأحياء وفيزياء...، ولكنهم في عملهم يجب أن يكونوا معلمين للغة العربية، يجب أن يعتزوا باللغة، ولا يَرْضَوْا عنها بديلاً؛ لأن هذا -فيما أرى- جزء من الإيمان. سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- رجلاً يلحن، فقال: "أرشدوا أخاكم، فقد ضلّ".

وكتب إلى عمرَ بن الخطاب عاملُه في اليمن كتاباً، وقع فيه خطأ لغويٌّ، فكتب له عمر: أنْ قَنّع كاتبكَ سوطًا. وشُكي إليه -رضي الله عنه- إمامٌ يلحن، فقال: أخّروه.

ومن طريف ما يروى في رسم العربية (النحو)، أن أبا الأسود الدؤلي شكا لعلي بن أبي طالب فساد لسان ابنته، حين "سمعها تقول: (ما أحسنُ السماء)، وهي لا تريد الاستفهام، وإنما تريد التعجب. فقال لها قولي: (ما أحسنَ

السماء!)... فوضع له بعض أبواب النحو، وقال: انْحُ هذا النحو، ومن أجل ذلك سمّي بعلم النحو"[1].

وربما يعلم معظم الناس القصة الطريفة التي كانت سببًا في توجه سيبويه إلى أخذ علم النحو؛ ذلك أن سيبويه –وهو غلام– دخل على الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو في مجلسه، فسمعه يقول: (كل إنسان يؤخَذُ منه كلامه ويرد، ليس أبا الدرداء). فقفز سيبويه، وقال: (ليس أبو الدرداء). فقال الخليل: (هيهات، تزببتَ وأنت حِصْرِم). أي تصرّفت تصرّف العلماء، وأنت لا زلت في بداية الطريق.

فقال سيبويه: لا غرو، لأطلبنّ علمًا، لا تلحنني فيه أبداً. وبدأ دراسة النحو والكتابة فيه.

كان الخليل في هذا المجلس (معلمًا)، وصار سيبويه بعد هذا الموقف أشهر معلمي اللغة العربية والنحو العربي على الإطلاق.

ولعلّ احتفال الأردن – كل عام– بعيد المعلم، الذي اصطنعته الدولة منذ منتصف القرن الماضي، أن يكون أوضح دليل على مكانة المعلم في وطنه، ويشهد المواطنون كل عام الاحتفال المهيب الذي يقام للمعلم في يوم عيده. يكرّم فيه المعلمون المتميزون، ويعطون الجوائز السنوية والشهادات المصدقة.

وهكذا نرى أن هذه الأمة كانت –ولا زالت إن شاء الله– أمة العلم والمعرفة، أمة المعلم والتعليم والتربية، على مرّ القرون، وكانت مرتبة المعلم دائمًا في مقام سامٍ، وإني لأتمثّلُ الآن بأبياتٍ لأحمد شوقي، قالها في حفل قام به نادي مدرسة المعلمين العليا في مصر، فكأنه كان يحتفل بعيد المعلم في كل مكان وفي قلب كل إنسان عربي، يدرك قيمة المعلم في حياة الأمم:

---

(١) المدارس النحوية، شوقي ضيف، (ط٧)، دار المعارف، ص١٥.

قـــــم للمعلـــــم وفّـــــه التبجـــــيلا كادَ المعلـــمُ أن يكـــونَ رســـولا

أَعَلِمتَ أشـــرفَ أو أجـــلَّ مـــن الـــذي يبني ويُنشـــئ أنفسًـــا وعقـــولا؟

ثم يذكر شوقي أن الأمم إذا احتفلت بالمعلم، وكرّمته، وعرفت فضله، زادت بذلك شرفًا وفضلاً وتقدمًا ومكانةً بين الأمم. وإذا قصّرت في احترام المعلم، زادت جهلاً وتأخرًا، يقول شوقي:

يـــا أرضُ مُـــذْ فَقَـــدَ المعلـــمُ نفسَـــهُ بين الشموسِ وبين شرقك حـــيلا

ونحن في الأردن، نرجو أن نكون في مقدمة الدول التي تحتفي وتحتفل بإنجاز المعلم، وتعمل على إكرامه ورفع منزلته، ولعل قطاع التعليم، وعدد المعلمين والمتعلمين في بلدنا، يكاد أن يكون ثلثَ سكانه، وهذا دليل على مكانة العلم والعلماء في قلوب أبنائه، وإعلانٌ عن أنه بالعلم تقوم الشعوب وترتقي، وبفضل العلماء والحكماء تتقدم الأمة في كل شؤون الحياة، ولا غرو في هذا؛ فإن في هذه السياسة التي تتحقق في بلدنا العزيز، من تشجيع العلم، والتوسع في إنشاء المدارس والجامعات، وتأهيل المعلمين والمعلمات، لدليلاً على السياسة الحكيمة التي تبني مجد هذه الأمة، وتحقق أمانيها وأهدافها، ولسوف نرى بلدنا العزيز، إن شاء الله، وهو يتقدم البلدان العربية كافة، في سبل التقدم العلمي، والصنع الحضاري، والرقي الثقافي، والوعي التربوي، وكل ذلك يعود بنا إلى تحقيق الهدف المنشود في قلب كل مواطن غيور على عزة بلده، وعلو مكانته، وشرف أمته.

ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون.